

الماكيافيللية : معالم سياسية متجددة وسؤال جديد عن الحكم والأخلاق

أ/ امحمد طالبي
جامعة الجزائر 2

Abstract :

Cette étude a pour but, de requestionner la relation entre la politique et la morale à travers la pensée politique de Machiavelle, surtout celle contenue dans son ouvrage intitulé « Le prince ». Les raisons d'écriture sur ce sujet visent à poser les questions suivantes et tenter de leur trouver des réponses: Le " Machiavellisme " est-il une pensée originale de Machiavelle ou existait-elle depuis l'ère Grecque et ne s'était pas arrêté depuis?

Le slogan « La fin justifie les moyens » devenue lié à Machiavelle, est-il une invention de ce penseur Italien lui-même ou n'a-il fait que tirer ce slogan qu'à travers les agissements des hommes d'Etat de même les gens dans la vie publique?

لقد استطاع ماكيافيللي من خلال أفكاره السياسية أن يشغل عالم السياسة ومن فيه ردحا طويلا من الزمن امتد منذ ظهوره في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، ولا يزال تأثيره إلى اليوم. ويكاد يجمع المهتمون بالشأن السياسي، سواء في مجال التنظير أو الممارسة، على أن ماكيافيللي يعد من الشخصيات الفذة والنادرة التي تركت إبداعاته السياسية أثرا بالغاً لا يمكن إنكاره ولا تحاشيه. وقد اختلفت الآراء في تقديرها واشتد الجدل حول تفسيرها، فخصومه يرون أنه أساء الانتفاع بعبقريته وأن كتابه المسمى "بالأمير" من الكتب المخالفة للآداب وللدين والتي يجب تحريمها وإحراقها وإراحة الناس من شر ما احتوت عليه. ويذهبون في اتهامهم هذا، إلى أن الباعث الذي جعله يؤلف كتابه الموسوم **الأمير** هي رغبته الملتوية في تبصير الطغاة والمستبدين بأساليب السيطرة على الشعب ونهب ثروة الأغنياء، وتجريد الفقراء من الشرف والكرامة. أما أصدقاؤه والمعجبون به فيرون فيه الوطني الذي امتلأت نفسه بحب بلاده والذي تطلع إلى الوحدة الإيطالية قبل أن يولد "متزيني" و"غاريبالدي وكافور" بقرون عدة¹. ولكن ما حقيقة ماكيافيللي؟ وما قيمة أفكاره السياسية؟ وهل كان كتابه "الأمير" حقا كتابا موجها للطغاة المستبدين بشعوبهم أم كان على العكس من ذلك تبصيرا للشعوب لما يخططه ضدهم حكامهم؟ وهل أساء ماكيافيللي فعلا للأخلاق عندما دافع عن المصالح العليا للوطن أم ان الناس أساءوا فهم أفكاره السياسية؟ وهل كان ماكيافيللي سيئا إلى هذا الحد أم قصور أفهام خصومه هو الذي

1 تراث الإنسانية، المجلد الأول، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص. 330.

أخطأ تقدير أفكاره ؟ وهل يمكن القول أن "الماكيافيلية" كانت موجودة قبل ماكيافيلي أم هي فكرة أصيلة له ؟

يحاول هذا البحث الإجابة عن هذه الأسئلة ملقيا الضوء على فكرة الماكيافيلية، كمنطلق وكاستنتاج ، لممارسات رجال الحكم قديما وحديثا وامتدادها لكل ماله علاقة بالشأن العام وحتى العلاقات الفردية.

1-أوضاع إيطاليا في عصر النهضة وتأثيرها في تشكيل الرؤية السياسية لدى ماكيافيلي:
عاش ماكيافيلي في عصر النهضة الأوروبية، وشهد كل التغيرات العنيفة التي أثرت في بنية المجتمع الأوروبي عموما، وفي إيطاليا تحديدا، وكانت هذه التحولات شاملة لكل المستويات. فعلى الصعيد السياسي، انقسمت إيطاليا في هذا العصر إلى خمس ولايات هي: البندقية في الشمال الشرقي، وفلورنسا، والدول الباباوية، ومملكة نابولي في الجنوب، وميلان في الشمال الغربي.² وقد عاصر ماكيافيلي الفساد الاجتماعي والسياسي وحالة التشتت والانقسام والفوضى التي عمت إيطاليا، والتي أثرت في بنيته الفكرية وحمل هم لملمة هذا الشتات وحلم بتوحيد إيطاليا وردها إلى سابق عدها، واضعا النموذج الروماني كغاية وكمثال يجب تحقيقه.

فعلى المستوى الاجتماعي، لا يخطر على أي مؤرخ مهتم بالشأن الإيطالي في عصر النهضة أن أبرز ما ميز إيطاليا آنذاك هو الفساد الاجتماعي والانحلال الخلقي الذي صاحب نهضة فكرية وثقافية كبيرة، فعاشت إيطاليا يومها بين قطبين متناقضين، نهضة علمية مشهودة وفسادا سلوكيا لا نظر له. وسبب ذلك الفساد هو الثراء الفاحش جراء انتعاش الحركة التجارية باعتبار إيطاليا تقع على ملتقى الطرق التجارية، وهو ما انعكس سلبا على أخلاقيات النساء والرجال عموما. بالإضافة إلى التقاتل السياسي الحاصل آنذاك.³ كما تعرضت الحريات إلى الانتهاك من طرف الحكام المتشددون الذين استبدوا أيضا بالقانون وأطاحوا بالسلام مستخدمين وسائل القوة. وهذا ما أشاع الاضطراب والفتن في حياة إيطاليا⁴، وقد تعرضت مدن إيطاليا للنهب والسرقة، وهجرت معابدها ، ولم يعد الناس يمارسون الطقوس الدينية ، فارتكبت الفظائع التي لاحد لها، وكوفئ المجرمون بدلا من عقابهم.⁵

وقد بدا للشعب الإيطالي أن الحكام أو الكنيسة – وهما المسئولان الأساسيان في الانخراط الأخلاقي والانفلات الأمني – عاجزون عن حمايتهم بكل ما يستطيعون من وسائل الخداع . وأصبح الخروج عن القانون هو المتبع من قبل الحكام والشعب على حد سواء.⁶
فقد كانت فلورنسا، على سبيل المثال، تقتقر إلى الوسائل القانونية التي تحد من طموح الأقوياء، فضلا عن النقص الذي شاب دستورها، مما دعا مواطنيها إلى اللجوء إلى الأساليب غير القانونية وكان المواطنون أصحاب النفوذ يطبخون الاضطرابات والفتن ليتمكنوا من فعل ما يريدون واغتصاب الحرية ، فأصبحت دولة يمتزج فيها الطموح بالفوضى، وأخذت المدينة تسير في طريق الخراب.

2 إمام عبد الفتاح إمام، الأخلاق والسياسة (دراسة في فلسفة الحكم)، المجلس الأعلى الثقافي، القاهرة، 2001، ص 249.
3 ول ديورانت، قصة الحضارة، تر: محمد بدران، م 5، ج 3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والبشر، ط 2، القاهرة، 1976، ص. 77.

4 م.ن.

5 ميكيافيلي نيقولا، **مطارحات ميكيافيلي**، ص 385.

6 ول ديورانت، قصة الحضارة، ص. 78.

أما البندقية، فقد أعدم أهلها الفضيلة وكست الغطرسة أبناءها الذين أضاعوا جميع ممتلكاتهم بسبب اليأس الذي سيطر على عقولهم وأضعف عزيمتهم⁷، والحال نفسه ينطبق على ميلان ونابولي، فقد كان سكان هاتين المدينتين قد بلغوا حد الإفراط في الفساد، مما جعل من المتعذر إدخال الحرية إليهما⁸.

ويمكن القول في هذا المجال، أن إيطاليا كانت فريسة لأسوأ فساد خلقي، وأن حسن الخلق والصدق اعتبر من الأساليب الساذجة، مع انتشار الفجور والتهتك واحتراف الإجرام وسفك الدماء والقتل وسط تجاهل مطلق من قبل الرأي العام وفوضى القانون⁹، وليس أدل على ذلك من كلمة لوثر: "إن كل من يذهب إلى روما يشعر بأن عقيدته الدينية تترنح تحت الضربات التي تصيبه من جراء ما يرى"¹⁰، وهذا يجعلنا نستخلص أن الناس قبل مكيافيلي بزم من بعيد كانوا يلجئون إلى القوة والحيلة والخداع الأمر الذي يكون قد أثر في آراء مكيافيلي السياسية.

وعلى المستوى الاقتصادي يمكن القول أن إيطاليا كانت على درجة كبيرة من الثراء ساهم فيه تنوع اقتصادياتها المحلية وكذا التجارة. غير أنها لم تكن على المستوى السياسي قادرة مطلقاً على تشكيل قوة سياسية واحدة بسبب الصراعات الشديدة لدولها ولسيطرة كل منها على الأخرى لأهداف معظمها اقتصادية، الأمر الذي أضعف إيطاليا سياسياً واقتصادياً، وعلى المستوى السياسي نجد إيطاليا مختلفة الشأن عن باقي دول أوروبا لكونها كانت مقسمة إلى خمس دويلات متنافسة كما أسلفنا في بداية هذا العنصر من البحث.

وما يهمنا هنا هو دويلة فلورنسا التي ينتمي إليها مكيافيلي فقد عانت كثيراً من الصراعات الداخلية ومن الاضطرابات والفتن والنزاعات صورها مكيافيلي بقوله: "وجدت أنهم لم يهتموا شيئاً فيما يتعلق بالحروب التي خاضها الفلورنسيون ضد الأمراء والشعوب الأجنبية، إلا أنهم أسدلوا ستاراً من الصمت على بعض ما يتصل بالخلافات الأهلية، والمشاعر التي تفرعت عنها، بل أنهم مروا بسرعة فائقة على بعضها الآخر، لأن تاريخهم لا يستطيع أن يقدم للقارئ منفعة ولا متعة"¹¹.

وكان من أهم الاضطرابات في حياة مكيافيلي: المؤامرة التي قامت بها أسرة بازي ضد لورونزو دي مديتشي، الذي كانت من الأسر المصرفية العريقة، والتي استولت على السلطة عام 1434 وقد انتهت بالفشل¹².

وقد أرجع مكيافيلي المؤامرة إلى تسبب آل مديتشي بضياح ثروة آل بازي، ونعت آل مديتشي بالاستبداد وسوء التصرف، وبأنهم حافظوا على سلطانهم بالرشوة والفساد، وساهموا في ضياح الحريات. والواقع أن الصراعات لم تكن مقتصرة على فلورنسا بل شملت كل المدن الإيطالية حتى غدت هذه الأخيرة مثلاً للتناحر السياسي الداخلي وعرضة للغزو الخارجي من قبل فرنسا وإسبانيا. وهنا أدرك مكيافيلي أن إيطاليا لا وجود لها من الناحية السياسية، بل هي دولة ممزقة تفتك بها الحروب الأهلية والتحرشات الخارجية. وقد

7 نيقولا مكيافيلي، مطارحات مكيافيلي، ص 716.

8 م.ن، ص 285.

9 تراث الإنسانية، م 1، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص 331.

10 م.ن، ص 332.

11 م.ن، ص 333.

12 Machiavelli, Niccolo, Œuvres complètes, librairie Gallimard, France, 1952, p. 10.

آمن بأن القوة وحدها هي القادرة على تحقيق الوحدة الإيطالية التي أراد تحقيقها، ولو على حساب جميع القيم والمبادئ الإنسانية. فمصلحة الوطن تعلو جميع الاعتبارات والقيم وأن داعي المصلحة العليا يبيح كل الوسائل والممارسات، ومن هنا ندرك كيف ساهم الوضع العام في إيطاليا في عصر النهضة في تشكيل الرؤية السياسية لماكيافيلي، وكيف كان أصيلاً في هذا الاتجاه.

2- الحكومة السياسية والطبيعة الإنسانية:

إن استقراء التاريخ السياسي وتاريخ الحكومات وأنواعها التي اشتغل فيها ماكيافيلي وألف لذلك كتباً، ونصح بها الأمراء وكل من يشتغل بالسياسة، أدرك بما لا يدع مجالاً للشك، ضرورة فهم الطبيعة البشرية من قبل الحكام، معتبراً ذلك قاعدة أساسية في تأسيس أي نظام سياسي ناجح قابل للتحقيق وقادر على البقاء والاستمرار.

وعلى هذه القاعدة سعى ماكيافيلي إلى تأسيس نظرية في الحكم ملفتاً الانتباه إلى أن نجاح أو فشل أي مشروع سياسي متوقف أساساً على فهم الطبيعة البشرية. ويتميز ماكيافيلي في هذا الموضوع عن بعض مفكري الفكر السياسي في كونه يحاول أن يفهم طبيعة البشر من خلال ما هم عليه في الواقع وليس من خلال تصوره لهم كما ينبغي أن يكونوا عليه.

والإنسان عند ماكيافيلي شرير بطبعه، وهو نفس الموقف الذي تنبأه السفسطائيون من قبل وأنه يسعى بالفطرة وبالذوام إلى تحقيق مصالحه بالقوة ما كفته القوة لذلك، وأنه لا يطلب العدل إلا عند عجزه عن ممارسة الظلم يقول ماكيافيلي "يقال عن الناس بصورة عامة أنهم ناكرون للجميل، متقلبون، مراؤون ميالون إلى تجنب الأخطار شديدي الطمع، وهم إلى جانبك ما دمت تقيدهم فيبذلون لك دماءهم وحياتهم. ومصير الأمير الذي يركن إلى وعودهم مآله إلى الدمار والخراب. لأن الصداقة التي تقوم على أساس الشراء، لا على أساس نبل الروح وعظمتها زائفة تشتري بالمال وليست أمينة... ولا يتردد الناس في الإساءة إلى ذلك الذي يجعل نفسه محبوباً بقدر تردهم إلى الإساءة إلى من يخافونه، فالحب مرتبط بسلسلة من الالتزام، التي قد تتحطم، بالنظر إلى أنانية الناس عندما يخدم تحطيمها مصالحهم، بينما يرتكز الخوف على الخشية من العقاب، وهي خشية قلما تمنى بالفشل"¹³

ويفهم من هذا أن ماكيافيلي ينطلق في حكمه العام على البشر من منطلق سياسي وليس من منطلق أخلاقي. فهو لا يعالج مسألة أخلاقية تتحدث عن علاقة الحاكم بالمحكومين، فقد يبدو ذلك بحثاً نظرياً من مباحث الأخلاق العامة. ولكن ماكيافيلي كمفكر سياسي ومنظر للحكم، ينظر للأخلاق بمنظور سياسي واقعي ولذلك فهو يبحث عن الكيفية التي يجب على الأمير أو أي حاكم سياسي أن يتعامل بها مع البشر في إدارة سلطته وإنجاحها، من خلال إدراكه أنه لا بد من أن يعتبر الناس بصورة عامة أشراراً على الدوام لأغراض سياسية خالصة، مع إسقاط جميع الأحكام الأخلاقية، فماكيافيلي يعترف أن البشرية هي في الواقع حسنة وسيئة، وهذا ما لا ينكره أحد ولا يستطيع ذلك، ولكن يجب أن تعامل لأغراض سياسية على أنها سيئة¹⁴. ولم تأت أفكار ماكيافيلي السياسية هذه من فراغ، وإنما هو استقراء ومعاينة للجو السياسي الذي عاشته فلورنسا وما لاحظته هو نفسه من فساد الرجال وخبثهم في إدارة حكوماتهم، لذلك وجد نفسه بحاجة إلى حذف ما هو عرضي لصالح ما هو أساسي في السياسية. وفي هذا الإطار يقول: "إن على السياسة أن تتصرف دوماً كما

13 ماكيافيلي، الأمير ترجمة: فاروق سعد ص 144

14 حازم طاغية، نيقولا ميكافيلي، ص. 37.

لو كان الناس على الدوام خبيثاء وأشرارا¹⁵، وواضح أن ماكيافيللي قد ركز على جانب واحد من الطبيعة البشرية وناقشها من منظور سياسي بحث متجاهلا الحكم على الطبيعة البشرية من منظور أخلاقي. هذه الاستقاضة في فهم طبيعة الإنسان ، كمدخل أساسي لضمان نجاح أي ممارسة سياسية، هو مبدأ سياسي اعتمده أيضا فلاسفة العقد الاجتماعي مع توماس هوبز، جون لوك و جان جاك روسو وغيرهم. حيث يرى هوبز أنه من أجل تحديد طبيعة الدولة ينبغي الرجوع إلى مكوناتها الأساسية وهو الإنسان وتحديد طبيعته¹⁶، ونفس الفكرة نجدها عند جون لوك الذي يشترط أولا تحديد الطبيعة البشرية قبل صياغة أي نظرية سياسية فيقول: "لكي ندرك طبيعة السلطة السياسية إدراكا صحيحا ونستتبها من مصدرها الأصلي، ينبغي علينا أن نفحص الوضع الطبيعي الذي نجد البشر عليه"، كما دعا روسو إلى ضرورة العودة إلى طبيعة الإنسان الصافية والتماسها في الحالة الطبيعية قبل أن تتلوث بعناصر اجتماعية وحضارية.¹⁸

وواضح أن دراسة ماكيافيللي للطبيعة البشرية هي نتيجة دراسة وتحليل للواقع الذي عاشته فلورنسا خصوصا وإيطاليا عموما، وتاريخ الحكومات والدول من أجل بناء نظرية سياسية واقعية استقرائية يمكن أن يستفيد منها الحكام وتفيد المحكومين على حد سواء. وبناء على هذه الدراسة "العلمية" يؤكد ماكيافيللي أن الفساد ناجم عن فساد من يتمتعون بالسلطة. وبحنكته السياسية يعتقد جازما أن الفساد المنتشر لدى المشرفين على سن القوانين والأنظمة ينجم عنه بالضرورة فساد في القوانين التي يضعونها. فالمرشح مهمما كان، إذا أصبحت فضائله السياسية فاسدة نتج عنه بالتأكيد قوانين فاسدة تعبر عن المصالح الشخصية لا المصالح العامة للدولة. وهذا يؤدي إلى أخطار محققة¹⁹. ويذكر ماكيافيللي أن أحد أهم الأسباب الرئيسة لعظمة روما يعود إلى عظمة أنظمتها وكانت أحد أسباب قوتها وتفوقها ، ولذلك يرى أن للقوانين دورا هاما في كبح جماح الطبيعة البشرية الفاسدة للحكام والمحكومين على حد سواء.

إذن، فالقوانين هي التي تمنع شرور الطبيعة الإنسانية بصورة عامة ، وهذه الشرور تبدأ من الحكام وتنتهي بالشعب، أي أن فسادهم لا يبقى محصورا فيهم، بل ينتقل إلى فساد القوانين كما رأينا، وإن فقدان القوانين أو تجاوزها يعني بالنتيجة إفساد الجوهر وهو الشعب.

وبناء على ما تقدم يمكن القول أن ماكيافيللي قد انطلق من منظومة فكرية مفادها أن فساد الرأس بالدرجة الأولى ينبئ بفساد الجوهر وهو الشعب لأن فقدان الفضائل السياسية يعني فساد الجسد السياسي برمته، وهذا ما لا يجب حدوثه.

3- فن الحكم بين الفضائل السياسية والفضائل الأخلاقية:

يعتبر ماكيافيللي من وجهة نظر الكثير من المهتمين بالشأن السياسي، مفكرا سياسيا أصيلا ورائدا من رواد علم السياسة، وهو أول مؤسس لعلم السياسة في العصر الحديث

15 بولان، ريمون، الأخلاق والسياسة، تر: عادل العواء، دار طلاس، دمشق، ط 2، 1992، ص 277.
16 T. Hobbes, Léviathan, Traité de la matière de la forme et du pouvoir de la république ecclésiastique et civile, Paris: Dalloz, 1999, p. 6.

17 جون لوك، في الحكم المدني، تر: ماجد فخري، بيروت، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، 1959، ص 139.
جون جاك روسو: أصول التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، تقديم بديع عبد الكريم الشيخ، الجزائر: موفم للنشر، 1991، ص. 23.

19 نيقولا ماكيافيللي، مطارحات ماكيافيللي، تر: خيري حماد، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1983، ص. 329.

بالمعنى العلمي الاستقرائي . ولما كان ماكيافيلي رجل سياسة لا رجل أخلاق أو دين، فقد فصل بين علمي السياسة والأخلاق وجعل لكل منهما مجاله ومبادئه وغاياته. ومن ثم فقد مميز بين نوعين من الفضائل: الفضائل السياسية والفضائل الأخلاقية، وجعل لكل منهما مجالا خاصا به لا يتعلق كل منهما بالآخر وقد أراد ماكيافيلي بهذا التمييز أن يجعل حكم الدولة شيئا والعلاقات الإنسانية والشخصية ذات الطابع الأخلاقي شيئا آخر. وهذا الفصل بين السياسة و الأخلاق لم يكن ماكيافلي فيه أصيلا، فقد تحدث أفلاطون في "جمهورية" عن الكذب قائلا: "إذا كان من حق أشخاص آخرين (غير الأطباء) أن يكذبوا فهذا الحق يعود إلى رئيس المدينة كي يخدع أعداءه أو مواطنين لأجل مصلحة المدينة، والكذب خطر على أي شخص آخر"²⁰.

يرى ماكيافيلي أن ما يربط الحاكم برعيته أو وبحكم آخر، يختلف عما يرتبط شخصا بشخص آخر. فالعلاقة الأولى علاقة سياسية محضة لها فضائلها الخاصة بها، والعلاقة الثانية علاقة أخلاقية لها فضائلها الخاصة بها أيضا. فقد يتصف الحاكم بالفضائل الأخلاقية كشخص، وهي أخلاق لا تهم إلا صاحبها، ولكن لا تجعل منه بالضرورة أهلا لقيادة دولة إذا لم يكن يتمتع بالفضائل السياسية المطلوبة في مجال ممارسة الحكم.

وقد قرأ ماكيافيلي في تاريخ الدول والمدن والإمارات، أن الكثيرين جعلوا من فضائلهم الأخلاقية عاملا لسقوط دولهم وخسارة شعبيهم و"يحسن بنا أن نلاحظ أن ماكيافيلي لا يشغل باله في كتابه (الأمير) بأخلاق الأمير الخاصة و سيرته الشخصية، وإنما يتناول الأمير باعتباره ممثلا للدولة ورأسا لها"²¹.

وما نريد بالوصول إليه في هذا المجال هو أن ماكيافيلي يريد من رجل الدولة أن يخلص نفسه من الاعتبار الأخلاقية في سبيل مصلحة الدولة، فالفضيلة السياسية مقدمة على الفضيلة الأخلاقية. فإذا كان القدر يتطلب بحكم الضرورة أن يكون الحاكم على قدر من الكفاءة وأن يستخدم القوة ووسائل الإكراه للحفاظ على الدولة، فليس ثمة علاقة للضرورة بسلوك الحاكم الأخلاقية فقد يضطر إلى أن يتصرف على عكس ما تمليه عليه القيم الأخلاقية إذا تطلب الأمر استخدام القوة لغايات سياسية نبيلة. ولهذا أعتبر قيصر بروجيا من الغلاظ القساة القلوب إلا أن قسوته وحدث رومانا وأحلت الاستقرار فيها"²².

وهنا لابد من التوقف لرؤية جانب آخر يقف خلفه كل ما ينظمه ماكيافيلي من قواعد الحكم، وهو تحقيق الاستقرار الذي شكل عقدة الماكيافيلية بامتياز. لأنه كان ينتمي إلى دولة لا تنعم بالاستقرار يقول ماكيافيلي: "من الضروري لكل حكيم يرغب في الحفاظ على نفسه، أن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة والخير، وأن يستخدم هذه المعرفة أو لا يستخدمها، وفقا لضرورات الحالات التي يواجهها"²³.

ويضيف قائلا: "يستحيل على الحاكم الجديد، من دون الحكام جميعا، أن ينجو من سمعة القسوة والصرامة ، ذلك لأن الدول الجديدة تتعرض دائما للأخطار الكثيرة"²⁴.

20-أفلاطون، الجمهورية تر: حنا خباز، دار القلم، بيروت، ط 5، 1985، ص 125.

21-تراث الإنسانية، ج 4، ص 349.

22- نيكولا مكيافيلي، الأمير، تر: فاروق سعد ص 142.

23-المصدر نفسه، ص 136

24-المصدر نفسه، ص 143.

إذن، يجب على الحاكم الجديد الذي يسعى للحفاظ على ديمومة الدولة واستقرارها-لا لديمومة سلطته - أن يتعلم أن لا يكون طيباً، إذ أنه سيجد نفسه مضطراً أن يعمل خلافاً لما تقتضيه الرأفة والإنسانية والدين من أجل الحفاظ على دولته، ويبدو واضحاً أن ماكيافيلي يقدم الفضائل السياسية على الفضائل الأخلاقية .

وقد حث الأمير على التصرف عكس ما تدعو إليه الفضائل الأخلاقية والقيم الإنسانية إذا ما دفعته الضرورة لمواجهة القدر المعاكس. ويرى ماكيافيلي في قضية رومولوس الذي قام بقتل أخيه وزميله عندما عارضاه في تأسيسه لدولته الجديدة، أن عمله الشنيع هذا، وإن كان يستحق اللوم أخلاقياً، إلا أن النتائج الطيبة تبرره، فالغاية تبرر كل وسيلة وإن كانت مخالفة لما تدعو إليه القيم الخلقية طالما أن الهدف في نهاية المطاف هو خير المجتمع برمته. وتكمن واقعية ماكيافيلي هنا، في المفاضلة بين خيرين: خير خاص وخير عام، فعندما تكون الغاية هي تحقيق هدف سياسي يعود بالنفع للدولة ، الذي هو في الوقت ذاته نفع المجتمع، يجيز ماكيافيلي التكرار لكل ما هو أخلاقي إذا دعت الضرورة إلى ذلك في مواجهة القدر باعتبار أن القيم الخلفية-حسبه- وسيلة تستخدم حسب الحاجة ، والغاية هي الدولة ككيان قابل للاستمرار وحافظ للاستقرار الذي يعود نفعه بالضرورة على المجتمع. لذلك يدعو ماكيافيلي الحكام إلى الأخذ بالمكر والدهاء حيناً والشدة والبطش حيناً آخر، تبعاً للظروف وعلى حسب الضرورة. ولذلك امتدح الحكام الذين لا يتقيدون بالقواعد الأخلاقية في سبيل تحقيق قوة الدولة "فالضرورة آخر الأسلحة وأحسنها " وهذا المدح من ماكيافيلي ما هو إلا استقراء لواقع كان يعيشه، كما أسلفنا الذكر، ولم يعرج بخياله في عالم الميتافيزيقا، التي كان يرفضها أشد الرفض. فقد عاصر ماكيافيلي ساسة زمانه الذين اشتهروا بصفات لا أخلاقية كالخداع والكذب وعدم الاعتراف بالثقة أو الحب والصدقة والعهود والمواثيق في علاقاتهم السياسية، وكان يرى في هذا السلوك أمر طبيعياً لا شيء عليه من الناحية السياسية لا من الناحية الأخلاقية، بل يراها ممارسة ومشروعة ومحمودة في المجال السياسي طالما الهدف منها سياسي سامي هو المحافظة على كيان الدولة وديمومة استقرارها. وهذا ما يدعونا إلى الحديث عن هؤلاء الذين وصلوا إلى الحكم لا عن طريق الحظ والكفاءة، بل عن طريق النذالة والقبح، وينصح هؤلاء بضرورة استبدال أعمالهم الفظيعة التي دفعتهم إليها ضرورات المرحلة بتدابير نافعة، والقيام بمشاريع مفيدة. وإذا كان ماكيافيلي قد أشاد بهذه الوسائل التي قادت هؤلاء إلى الحكم، فإنه يرى من جانب آخر أن هذه الوسائل ربما لا تكون الأنجع لاستمرار الحكم لذلك، يتوجب " على الحاكم الذي يستولي على دولة أن يقر الأضرار التي سببها، ويصحبها مرة واحدة، ولا يجدد إلحاق الأضرار بها كل يوم. بهذه الطريقة يستطيع أن يبعث الطمأنينة في نفوس الناس ويجذبهم إلى صفه".²⁵ ونلاحظ هنا أن هذه الخطوات تستتبع الاستيلاء على الدولة، ومن ثم لا بد من إقرار الخير العام متمثلاً بالطمأنينة في صورتها الأولية، وهذا ما يبدو معياراً أخلاقياً مركباً ومعقداً وبراغماً في آن واحد. أما ما يخص الدولة التي حصل عليها برضا المواطنين، فإنها تتطلب شيئاً من الطالع الحسن، وشيئاً من الكفاءة، كما تحتاج إلى المكر والدهاء. فإن وصل الحاكم إلى الحكم عن طريق الشعب لا عن طريق الأعيان، فإن الشعب لا يريد أن يكون منقاداً أو مضطهداً من قبل الأعيان، لأن الأعيان يريدون التحكم والطغيان. أما إن

وصل إلى الحكم عن طريق الأعيان، فعلى الحاكم أن يبذل كل ما بوسعه لمصالحة الشعب بأسرع ما يمكن، فلن يجد حينئذ أكثر ولاء وإخلاصاً منهم²⁶، وهذا يعكس أن كل الوسائل التي تبدو غير أخلاقية عنده، يجب أن تؤول إلى جوهر أخلاقي، حتى ولو اضطر الحاكم أن يستخدم المكر والدهاء إذا فرضت عليه الحاجة والواقع ذلك.

4- حاكمة "الأمير" أو ماكيافيلي بين إجحاف خصومه وإطراء أنصاره.

لم يحدث أن لاقى كتاب فكري من الجدل ما وجده كتاب "الأمير" لماكيافيلي. هذا الكتاب على الرغم من صغر حجمه إلا أنه استطاع أن يستفز عقول كبار المفكرين ويستتفر أعلام الباحثين والكتاب، فيكون قد أحدث "ثورة" حقيقية في عالم السياسة، انقسم بشأنه كبار الفلاسفة إلى رأيين متعارضين: فالأول يرميه بشتى النعوت القبيحة ويتهمون به بأنه ذلك الرجل العرييد عدو الدين والأخلاق والداعي لكل رذيلة سياسية، وقد أصبح ماكيافيلي نتيجة هذا الهجوم الشرس عليه، ملازماً لأخلاق الكذب والخداع والمكر وأصبحت الماكيافيلية²⁷ مرادفة لكل ما هو غير أخلاقي. أما الرأي الثاني، فيعتبر ماكيافيلي المؤسس الأول لعلم السياسة في العصر الحديث، وأنه رائد الفكر السياسي بالمعنى العلمي، حيث سعى بجد بالسياسة لجعلها علماً مستقراً مخالفاً تماماً وساخراً من الفكر الطوباوي الذي ساد الفلسفة الكلاسيكية خاصة مع أفلاطون والفارابي.

يمكن القول أن أي كتاب لم تمر عليه فترات من حسن الطالع وأخرى من نحسه في أمريكا كما في غيرها من البلاد كهذا الكتاب. وتأتي أهمية هذا الكتاب في كونه - حسب البعض - ليس بالمقال الجامد بل بالكتيب الذي يحتاج إليه كل من ينشد القوة السياسية أو يعمل على زيادتها. وهكذا درسه واستخدمه لفييف من الملوك والوزراء اللذين اختلفوا في طبائعهم وأهدافهم من أمثال ريشليو كريستينا ملكة السويد وفريدريك ملك بروسيا وبسمارك وكليمنصو حتى بعض أمراء وملوك العرب وقد اتسعت هذه الحلقة في القرن العشرين²⁸.

26 جون جاك شوفالييه، أمهات الكتب السياسية، ص 42.

27 الماكيافيلية تقابلها باللغة الفرنسية Le Machiavélisme و يعتبر بايل الكاتب الفرنسي الشهير أول من استعمل هذا اللفظ ونسب إليها ما صار مرادفاً لها بعد ذلك في منتصف القرن السادس عشر إلى يومنا هذا من صنوف الغدر والأثرة

28 ماكيافيلي ، الأمير ، دار الخلود للتراث والنشر والتوزيع، القاهرة. ص 6

لكن لا مفر هنا من إعادة طرح السؤال هل كان ماكيا فيلي مفكرا للطغاة أعداء شعوبهم ممن يتلذذون بالسلطة والسعي إلى المزيد من اكتساب المزايا داخليا وخارجيا أم أنه كان مفكر الشعوب ونموذجا لرجل الدولة المحب لوطنه ولوحدة إيطاليا ؟

هل يمكن الحكم على ماكيا فيلي بأنه الرجل الذي تطاول على الأخلاق وكل القيم الدينية وحقوق الإنسان كما لم يفعل ذلك أحد من قبل أم أنه على العكس من ذلك هو الرجل المدافع على الأخلاق والحامي لها ؟

عندما نشر الكتاب في أوروبا لأول مرة أثار جدلا كبيرا بين المفكرين والفلاسفة كما رجال السياسة ورجال الدين وقد رأى البعض منهم وهم "كثير" أن الكتاب لا يناسب سوى الطغاة الأشرار من الحكام . وكننتيجة لهذه الشهرة في عالم الشر فإن كل القراء في أوروبا في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر يعرفون كتاب الأمير وصاحبه ماكيا فيلي ومن هؤلاء المثقفين نجد شكسبير يقول على لسان إحدى شخصياته في مسرحية "زوجات وندسور المرحات " " ماذا " "هل أنا مخادع " " هل أنا ماكيا فيلي "؟ كما أن "مارلو" قد استخدم الشخصية غير الأخلاقية على طريقة ماكيا فيلي في "يهودي ماطا 1589م"²⁹ ولم يقتصر الأمر على المسرح الأوروبي القديم والحديث بل نجده حتى في المسرح العربي الحديث حيث ترددت العبارات التالية في كثير من المسرحيات العربية "هذه مكيا فيلية رخيصة " وهذا هو مبدأ ميكيا فيلي الرخيص"³⁰

كما رفضه الكاثوليك والجزويث والبروتستنت . وقد حرم البابا بول الرابع كتب ماكيا فيلي بعد موته بنحو ثلاثين سنة رغم تصريح البابا كليمنت السابع باعتبار أن الكتاب مع باقي كتب ماكيا فيلي طبعت في المطبعة البابوية وهو وجه الغرابة .

والحقيقة أن الباباوات والأمراء و ذوو السلطة يظهرون في الظاهر سخطهم على كتب ماكيا فيلي ويتبعون نصائحه في أمورهم و دولهم في الباطن.³¹ ومن رجال الدولة و الساسة الذين أرادوا النيل من كتاب الأمير "فريدريك الكبير" صديق "فولتير" وتلميذه، فحاول أن يرد على ماكيا فيلي فعجز، فاستعان ب"فولتير" في نقده بعد ثناء هذا الأخير عليه، ولكن فولتير كان يعلم كيف يرضي الملوك دون أن يغضب الحق، فأعان فريدريك الكبير في وضع كتيب سموه "عدو ماكيا فيلي"، فلم يكن لهذا الكتاب أثر أو قيمة، بل قرأه نقاد القرن الثامن عشر، وعلى شفاهم ابتسامة الازدراء وقالوا في نفوسهم: "إن قصور الملك عن الفهم أدى به إلى النقد"³².

فهذه النتيجة هي التي ينطلق منها أنصار مايكيا فيلي ومحبوه وهو الرأي الذي انتهى اليه "جون جاك روسو" لكن بنظرة فيها الكثير من عمق التفكير وقوة التحليل فيقول في كتاب "العقد الاجتماعي": "إن مصلحة الأمراء الذاتية كامنة في ضعف الشعب وشقوته ، ليبقى أبدا عاجزا عن المقاومة وهم يفضلون ما يعود عليهم بالنفع مباشرة، وأن صنع ماكيا فيلي يشبه صنع صمويل لبني إسرائيل، فقد استقاد الملوك من كتابه وكانت فائدة الشعوب أكبر، لقد كان ماكيا فيلي رجلا شريفا أميناً حراً، ولكنه كان يعيش في كنف أسرة مديتشي فاضطر

29 ماكيا فيلي-كتاب الأمير -تر: أكرم مؤمن ، مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع .القاهرة 2004 ص ص.4. 5

30 م.ن.ص 5.

31 نيقولا ماكيا فيلي ، الامير، تع: محمد لطفي جمعة.ط.ح ، مؤسسة النوري، دمشق ، 1999 ص 29

32 م.ن.ص 30

أن يكتب بحيث تخفى مقاصده على غير الفطن، والفهم شيمة الحاذق"، وهذا الرأي نجده جلياً عند الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون الذي كان يقول أنه كان يقرأ لماكيافيلي وأنه هو الذي أوحى له بوضع المنهج الاستقرائي العلمي، وكان ماكيافيلي قد أقامه على دراسته لتاريخ الحكومات واستخلص منها نظراته في علم السياسة بعد ما كانت فلسفة السياسة، يقول بيكون "إن ماكيافيلي لا يفيد أحداً من الملوك، لأنهم يعرفون ما يقصدون ولكنه يفيد الشعوب ويفتح عينيها لما يحيف بها من الأخطار"³³

لم يكن ماكيافيلي سيئاً إلى الدرجة التي نعت بها خصومه، والواقع أنه تعرض إلى تحامل كبير نال فيه من التجريح والسباب والإهانة ما لم ينله مفكر أو فيلسوف سياسي واجتماعي حتى أولئك الذين سرحوا بخيالهم إلى عالم الطوباوية، مع العلم أن ذلك لم يفد الناس في واقعهم في شيء، والواقع أن ماكيافيلي لم يفعل شيئاً سوى وضع النقاط على الحروف، وكشف ما هو قائم بالفعل بصراحة قل أن نجد لها نظيراً في تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي³⁴ وقيم الدكتور نبيل راغب مقارنة بين ما قام به ماكيافيلي وما يقوم به علماء الطبيعة. أن إسحاق نيوتن مثلاً - فيما يقول - المظلم من النفس البشرية، وألقى الأضواء الفاحصة والمبهرة على دهاليز السياسة بحقائق الحياة السلبية منها والإيجابية على حد سواء.³⁵

يرى محمد لطفي جمعة - معرب كتاب الأمير - أنه لا يعقل أن يكون ماكيافيلي الرجل الذي قضى أيام شبابه وكهولته في خدمة وطنه... أن يتهم بمساعدة أهل البغي والطغيان في مفسادهم. إنما كتب ماكيافيلي ما كتب ليدل الناس على مواطن الغدر، ليفطنوا إلى صنوف الخداع فيما يدبر ضدهم، وما يدس لهم من الدسائس. ولو أن الناس قدروا قوله حق قدره، وأعاروا أراءه أفئدة واعية، ما تمكن أحد من إيذائهم³⁶.

لكن هذه التأويلات الإيجابية لصالح ماكيافيلي لم تشفع له ولم تستطع أن تغير من نظرة الناس عن أفكار ماكيافيلي والحكم على كتابه السيء السمعة، وأنه بلا ريب كتاب الطغاة ولم تنتفع منه الشعوب. فإذا كان الفلاسفة قد اختلفوا بشأن النصائح المتضمنة في كتاب "الأمير" هل هي موجهة للحكام أم للشعوب؟ وهل هي في الأساس تخدم مصالح الناس أم تمكن الطغاة من تثبيت سلطتهم والتحكم في رقاب العباد؟ فكيف تفهمها الشعوب وهي الأقل فهماً للأفكار السياسية؟ وما يضعف حجم المدافعين عن ماكيافيلي والمنافحين عن أرائه وإعطائها صبغة إيجابية، هو أن ساسة القرن العشرين عرفوا بطغيانهم وجبروتهم، قد اتخذوا من كتاب الأمير دستوراً لتوطيد حكمهم واستدامة ملكهم. وقد عبروا عن ذلك صراحة. فيقال أن بنتو موسوليني قد اختاره موضوعاً لرسالة الدكتوراه أيام دراسته. وقد تساءل في مقدمة بحثه: ماذا يبقى خالداً في الأمير بعد أربعة قرون من الزمن؟
ويجيب مؤكداً أن مذهب ماكيافيلي مازال حياً حتى اليوم بعد أربعة قرون..³⁷

33 م.ن.ص 31

34 نبيل راغب، اسرار المطبخ السياسي رد الاعتبار لماكيافيلي

35 م.ن.ص ن

36 نيقولا ماكيافيلي، الأمير، تع. محمد لطفي جمعة، مرجع سابق، ص 32

37 فاروق سعد، تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999 ص 6

ويذكر محمد حسنين هيكل تحت عنوان « مفكرات في ملفات ملكية » أن الحسن الثاني قرأ ماكيافيلي أميرا وطبق آراءه ملكا، و يقول المهدي بن بركة(*) " أنا أعرفه (يعني الملك الحسن الثاني) أكثر منك (يخاطب هيكل) كان تلميذي لسنوات وكنت أدرس له الرياضة، لكنه كان مهتما أكثر بقراءة و حفظ كتاب "الأمير" (كتاب ماكيافيلي الشهير). وفي استراحة بين الدروس قال لي مرة.. ماكيافيلي له الحق في أن الأمير يجب أن يكون له دهاء ثعلب (يتجنب به كل الشراك) وبطش أسد (يفترس به كل الذئاب).³⁸

من هذا العرض الذي تناول "محاكمة الأمير" نخلص الى نتيجة مفادها أن هناك نقطة دقيقة تستوجب الوقوف عندها والتنبيه إليها، وهي أن العبارة السياسية المشهورة " الغاية تبرر الوسيلة" ليست في الواقع مبدأ أصيلا في فكر ماكيافيلي السياسي. صحيح أنها وردت في الفصل الثامن عشر من كتاب الأمير لكن على أساس أنه أحد المبادئ والقوانين التي سار على نهجها معظم الساسة عبر العصور، ولم يخترع ماكيافيلي هذا المبدأ. بل قام بتحليله وتعريفه حتى يدرك الأمير، أو الحاكم الذي أهده كتابه، حقيقة القوانين التي تتحكم في العمل السياسي. يقول ماكيافيلي: "إن المنهج الذي يسلك الناس على أساسه بصفة عامة، والأمراء بصفة خاصة، يتمثل في قاعدة لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها هي أن الغاية تبرر الوسيلة".³⁹

وكان ماكيافيلي يحرص على أن تكون هذه القاعدة استثناء غير أنه أدرك بوعيه السياسي والتاريخي أنها كانت في معظم الأحيان القاعدة الراسخة وغيرها هو الاستثناء. ذلك أن الطبيعة البشرية بكل طموحها، تميل دائما إلى وضع المصالح القومية العليا والقيم الأخلاقية والدينية في خدمة الأهداف الضيقة المؤقتة التي ترتبط بالأشخاص. والأخلاق التي يريدها ماكيافيلي ليست مجرد شعارات أو مثل نظرية بل هي عبارة عن قواعد علمية يمكن أن تحمي حقوق الجماعة الوطنية وليس حماية مجتمعات ذات مصالح ضيقة.

خاتمة:

وفي الأخير نخلص إلى القول، أن الماكيافيلية كممارسة سياسية هي واقع سياسي متجدد لم يرتبط بزمان أو مكان معينين بقدر ما هو ممارسة ملازمة لكل نظام حكم سياسي ومارسه الحكام عبر العصور، ولكن بكيفيات مختلفة باختلاف ظروف كل دولة ونظرة كل حاكم وتقديره للمصلحة العامة أو ما أصبح يعرف، في فترة ما من الزمن، بداعي المصلحة العامة. كما أن الماكيافيلية لم تقتصر على نظام حكم معين، وإن ربطه البعض بالأنظمة الاستبدادية فالبراغماتية التي قيل عنها أنها فلسفة القرن العشرين وما بعده والتي تبنتها الأنظمة الديمقراطية المعاصرة، هي الأخرى اعتمدت الماكيافيلية بشكل من الأشكال، باعتبار أن الغاية من الممارسة السياسية هي تحقيق المصلحة العامة والتي تستعمل كل الوسائل المؤدية إلى ذلك حتى ولو كانت غير أخلاقية قد تتعدى إلى تجاوز حقوق الإنسان الأساسية، وتتجاوز القانون باسم القانون حماية للمصلحة العامة كما هو الحال في حالات الطوارئ التي يتعطل خلالها العمل بالدستور حامي الحقوق. والأمر يمتد ليشمل العلاقات

(*) (**) المهدي بن بركة معارض مغربي كان أستاذا للملك الحسن الثاني، اغتالته المخابرات المغربية في باريس عام 1965 بالتواطؤ مع عناصر من الأمن الفرنسي. وقد أدان "ديغول" صراحة هذا الاغتيال متهما الملك الحسن الثاني في 10/11/1965 بشكل رسمي في اجتماع خاص لمجلس الوزراء الفرنسي.

38 محمد حسنين هيكل، كلام في السياسة، ص 362

39 نبيل راغب، أسرار المطبخ السياسي، مرجع سابق ص 20.

الاجتماعية بين الأفراد والجماعات فيما بينها. وعليه فالماكيافيلية ك ممارسة وسلوك هي أسلوب عام غير مقيد بماكيافيلي وإن التصق باسمه كمفهوم و يتجاوز نظام الحكم ومؤسساته إلى العلاقات الاجتماعية وسلوك الأفراد ذاتهم.

المصادر والمراجع:

- (1) أفلاطون، الجمهورية، تر: حنا خباز، دار القلم، بيروت، ط 5، 1985.
- (2) إمام عبد الفتاح إمام، الأخلاق والسياسة، دراسة في فلسفة الحكم، المجلس الأعلى الثقافي، القاهرة، 2001.
- (3) تراث الإنسانية، المجلد الأول، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر،
- (4) ديورانت، ول، قصة الحضارة، تر: محمد بدران، م 5، ج 3 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط 2، القاهرة، 1976.
- (5) راغب نبييل، أسرار المطبخ السياسي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- (6) روسو، جونجاك، أصول التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، تقديم، بديع عبد الكريم الشيخ، الجزائر، موفم للنشر، 1991
- (7) ريمون بولان، الأخلاق والسياسة، تر: عادل العوا، دار طلاس، دمشق، ط 2، 1992
- (8) سعد فاروق، تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999
- (9) سينيلار، ميشيل، الماكيافيلية ودواعي المصلحة العليا، تر: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، ط 2، 1423هـ-2002م
- (10) لوك، جون، في الحكم المدني، تر: ماجد فخري، بيروت، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، 1959.
- (11) ماكافييلي، نيكولا، الأمير، تر: أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 2004
- (12) ماكيافيلي، نيكولا، تع: سعد فاروق، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1999
- (13) ماكيافيلي، نيكولا، مطارحات ماكيافيلي، تر: خيري حماد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1983.
- (14) ماكيافيلي، نيكولا، الأمير، دار الخلود للتراث والنشر والتوزيع، القاهرة
- (15) ماكيافيلي نيكولا، تع: محمد لطفي جمعة، ط 2، مؤسسة النوي، دمشق، 1999.
- (16) هيكل محمد حسنين، كلام في السياسة، المصرية للنشر العربي والدولي.
- (17) Hobbes, thomas , Léviathan, traité de la matière de la forme et du pouvoir de la république ecclésiastique et civil, Paris: Dalloz, 1999.
- (18) Machiavelli, Niccolo , Œuvres complètes , libraire Gallimard, France, 1952.

